

## التوحيد في العبادة ... إشكالية المفهوم والمصداق -4

إن الطاعة ليست حداً منطقياً للعبادة ، وبمعنى آخر : لا يمكن اعتبار أن الطاعة لوحدها عبادة وإلا لم يبق أحد على وجه الأرض من المسلمين إلا وهو خارج عن الإسلام ، فنحن نطيع آباءنا ، وأمهاتنا وإخواننا الكبار ، وسادتنا ، وكبراءنا ، وحكامنا ، وقادتنا في العسكر أو الوظائف المختلفة وهذه الطاعة تكون عبادة لهم ، ولكن القرآن لا يفترض هذا فقد أمرنا [ الطاعة رسوله مقرونة بطاعته كما في آيات عديدة منها :

قوله تعالى: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} [آل عمران: ٣٢]

وقوله تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَٰمُ مَا نَزَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبِئْسَ الْأُمَّةَ} [المائدة: ٩٢]

{وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: ٤٦]

{قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكُمْ مَآ حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَآ حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِسْلَٰةٌ الْبِئْسَ الْأُمَّةَ} [النور: ٥٤]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَدُوَّهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ} [الأنفال: ٢٠]

بل وجاء الأمر من [ الطاعة الرسول بخصوصه كما في قوله تعالى : {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [النور: ٥٦]

ولم تكن الطاعة لرسول [ فقط بل لكل ولي أمر ، ومن هو ولي الأمر ؟

كل بحسبه ، فمن يعتقد أن ولاة الأمر هم الحكام كما يراه إخواننا السنة فإنه يجب طاعتهم ، ومن يراه الأئمة كما هم الشيعة يجب طاعتهم ، وفي كلا الفرضين يجب طاعة غير الرسول ، فهل أن طاعة ولاة الأمر عبادة لهم ؟ كما في قوله تعالى:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ - وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ - وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ° فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ - وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } النساء: ٥٩

وقد جاء في القرآن الكثير من الآيات التي فيها أمر للناس باتباع أشخاص كما في قصة هارون وطلبه من قومه أن يطيعوه :

{وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي } طه: ٩٠

وفي قصة عيسى عليه السلام قوله تعالى:

{إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قُمْ وَرَأْفِعْكَ إِلَيَّ ° وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا ° إِلَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ° ثُمَّ إِنِّي مَرَّجِعُكُمْ ° فَأَذْجِعُكُمُ فِي مَآبِدِكُمْ ° فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } آل عمران: ٥٥

اتبعوك يعني أطاعوك ونهجوا منهجك وطريقتك ولا يكون ذلك إلا بطاعتك .

وفي قصة إبراهيم إن أولى الناس به للذين اتبعوه بإطاعته كما في قوله تعالى :

{إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِالْبِرِّهِمْ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ° وَهَذَا الذِّي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ° وَلَمْ يَكُن لِمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ أَلَّا يَكُونَ لِلَّهِ عِزٌّ عَظِيمٌ } آل عمران: ٦٨ والآيات في ذلك كثيرة .

وقد ورد في مقابل ذلك ما يدل على أن هناك طاعة منهي عنها كطاعة الشيطان كما في قوله تعالى :

{أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ \* وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} (يس/60-61). لا تعبدوا الشيطان بمعنى لا تطيعوه .

{وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْهِكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا فَلَاحًا} □ النساء: ٨٣

وطاعة الكفار والمنافقين كما في قوله تعالى زجراً لنبيه {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} □ الأحزاب: ١

وقوله تعالى: {فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ وَكَافُورًا} □ الانسان: ٢٤

وطاعة المخلوق في معصية الخالق ولو كان الأبوين اللذَيْنِ دعا القرآن إلى برهما:

{وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ عِلْمٍ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَيْهِمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنْزَلَ إِلَيْنَا لِيُحْكُمَ مِنْكُمْ فَأَنِزْنَاهُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} □ لقمان: ١٥

وهناك طاعة لم يرد فيها أمر أو نهي فتكون جائزة وهذا ما تعارف عليه المسلمون ، من طاعة الرئيس والمدير في الدوائر الحكومية في مختلف الوظائف ولا يمكن لأحد ادعاء أن ذلك مما هو خارج الشرعية ، وهذه الطاعة مع أنها لم ترد بصورتها الاجتماعية في القرآن إلا أنه لا قائل بأنها تعدّ عبادة للمطاع من قبل المطيع .

ومعنى طاعة □ أن تمتثل أوامره ونواهيه، فهل أن جميع المسلمين السنة أو الشيعة اليوم يطيعون كل أوامر □ ونواهيه بحيث يصدق عليهم أنهم عبيد □ أو أن كثيراً منهم يطيعون أشخاصاً وأفراداً علاوة على الشيطان، لذا تجد الكثير من المسلمين اليوم ومن جميع الطوائف يسرحون ويرتعون في المهالك والملذات وهؤلاء خرجوا قطعاً عن طاعة □ ، فهل نقول عنهم أنهم عبدة لشهواتهم كما قال تعالى {أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَتَّخَذَ تَكْوِينَ عَلَيْهِمْ وَكَيْدًا} □ الفرقان: ٤٣ وقوله أيضاً {أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ

عِلْمٍ وَخَتَمَ عِلْمٍ سَمِعَهُ وَفَلَّابِهِ وَجَعَلَ عِلْمٍ بِصَرِّهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ  
مِنْ بَعْدِ اللَّسَةِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ { الجاثية: ٢٣ }

والخلاصة : أن الطاعة لوحدها لا تعد حداً منطقياً للعبادة وإلا لو اعتبرناها كذلك فإن الجميع لن  
يكون عابداً .